وفي مقابل شبه الغياب الذي يسم حضور المكان الانتقالي، المنفى المؤقت، داخل الوطن، نجد حضوراً ذا كثافة نسبية للأماكن التي تحولت، مع مرور الزمن، الى منافٍ داخل الوطن، وهي على وجه التحديد، والدقة: المخيمات، إذ غالباً ما يتجاوب المخيم، سواء أكان داخل الوطن أم كان خارجه، في صفاته الطوبوغرافية والهندسية، وفي مدلولاته الاجتماعية، والسياسية، والشعورية، أي في صلته العميقة بمقولات: الوطن، والمنفى، والهوية. ويتبدى هذا التجاوب في صورتين للمخيم، نجد الاولى في رواية «ما تبقى لكم» والثانية في رواية «أم سعد»، وتصبّ في مجرى هذا التجاوب اشارات ترد في رواية «رجال في الشمس» فتساهم، أو هي تشكّل اللبنات الاولى في عالم غسان الروائي، لرسم صورة المخيم وتفجير حركتها الدلالية، وإذ سنأتي لاحقاً على قراءة صورة المخيم كمكان للمنفى في الخارج، فإننا نذهب الآن، الى قراءة صورته كمكان للمنفى داخل الوطن.

غزة حاضنة المخيم والغياب

تقدم رواية «ما تبقى لكم» رؤية مغايرة لتلك التي اتسم بها المكان الانتقالي كمنفى مؤقت، داخل الوطن، إذ نكون، مع هذه الرواية، بإزاء مخيم للاجئين، وبإزاء مكوّناته، وفي إطار مدينة غزة التي تحتضنه، وتتمايز عنه في آن، وترتسم صورة مدينة غزة في موضعين، فقط، أولهما في بداية الرواية، والثاني في وسطها تقريباً، وهذا يدل، كما هو واقع الحال، أن الاشارات الى غزة، جاءت في سياق صلتها بحركة «حامد» ووقع خطواته في صحراء النقب، والاحداث التي ينهض بها، وحالاته النفسية والشعورية المتحولة، وتجيء الاشارة الاولى، على لسان الراوي، وهو يتابع خطوات حامد مع اقترابه من اختراق الحدود، التي تفصل غزة عن باقي أعضاء جسد الوطن الفلسطيني، يقول الراوي: «وبعيداً وراءه غابت غزة في ليلها العادي، غابت مدرسته باديء الامر ثم غاب بيته، وانطوى الشاطىء متراجعاً الى قلب الظلام، وبقيت أضواء الشوارع معلقة هنيهة، متعبة وواهنةً، ثم انطفأت بدورها واحداً وراء الآخر»[٣٣]، أما الاشارة الثانية فتجيء على لسان حامد نفسه، وذلك بعد أن أوغل في الصحراء، وبعد جملة من التداعيات الطويلة، وبعد أن انفجرت حزمة الضوء الارجواني، والمتعدد الألوان، من السيارات العسكرية الاسرائيلية، ثمّ اختفت، وبعد أن خلا لنفسه متأملاً نفسه: «إجلس هنا تحت هذه السماء المرتدة الى أعماقها وفكّر بروية: غزة راحت الآن وامحت وراءك في الليل. خيوط الصوف كرت كلها، ولم تعد أنت مجرد كرة لفوا عليها خيطان الصوف ستة عشر عاماً، ولكن من أنت»[٣٤].

في كلا المقتبسين، تحضر غزة، موسومة بالغياب؛ إنها تغرق في سديم غامض غموض السديم الذي يلف مستقبلها، وليس ذاك الذي يبحر فيه حامد بحثاً عن هويته، وتغيب الاشياء: المدرسة والبيت والشاطىء وأضواء الشوارع، وفق تسلسل ابتعاد خطوات حامد عنها، وابتعادها عن الافق الذي يستطيع بصره أن يشمله، إن الرؤية في كلا المقتبسين هي رؤية حامد، ولئن جاء أحدهما على لسان الراوي، فإنه الراوي الذي يسكن الشخصية ويبوح بأعمق مشاعرها، إذ لا فرق يمكن العثور عليه بين المقتبسين: لغة وايقاعاً ونبراً وموقع رؤية ومنظوراً، هنا ينبثق المكان من خلال الوجدان والمشاعر، ويكون على صلة عميقة بالحدث ووقع الخطوات، وبانعكاس كل خطوة يخطوها حامد باتجاه الصحراء ـ الحد الذي يفصل الوطن عن الوطن ـ على ذاته الذاهبة نحو تلمس هويتها، فنكون بإزاء رؤية ظاهرية للمكان شديدة الكثافة، والشاعرية لأنها تنبثق من داخل الشعور، ويتداخل فيها الانسان والمكان: يوغل حامد في ليل الصحراء وسديمها غير العادي، وراءه تغيب غزة في ليلها العادي، تنبثق في